أول ليلة طرب

حسن داوود

هناك خطأ في هذه الصورة. الآن فقط انتبهت إليه مع أن هذه ليست هي المرة الأولى التي أقرّبها إلى عينيّ متطلعاً فيها، موقفاً للحظات تفتيش الملح عن ورقة لعلّي وضعتها هنا، في هذا الجرار. الآن فقط انتبهت إلى أن من غير المنطقي أن تكون هذه الصورة صحيحة. في خلال السنوات الخمس أو الست التي انقضت على احتفاظي بها، كانت قد استوقفتني مرات كثيرة: عشر مرات؟ عشرين مرة؟ أكثر قليلاً؟ الآن أعرف أنني كلما نظرت فيها كنت أرى الشيء نفسه. أو أنني كنت أكرر نظرتي الأولى إليها، هناك في بيت عمتي التي، بعد انقضاء نحو ثلاثين سنة على افتراقنا عن ذلك البيت الواحد الذي كنا نعيش فيه، أحضرت تلك العلبة القديمة وجعلت تريني ما فيها من صور.

أتعرف هاتين البنتين؟ سألتني فيما هي تقرّب الصورة إليّ.

لم أتأخر كثيراً في الجواب:

ـ فرحة ومرحة!

كان ذلك في صيف ١٩٦٢، ليلة زواج عمي. فرحة ومرحة، اللتان جيء بهما لتغنّيا في حفل الزفاف ذاك، لم تكونا عصيتين على النسيان فحسب، بل إنهما كانت تقرنان أشياء كثيرة من ذلك الماضي بهما، أو باسميهما. لسنوات كثيرة، أو لعشرات السنين كما كان يحب صديق لي أن

يقول كلما خطر له أن يمزح في كوننا كبرنا في العمر، كنت كلما تذكرت تلك الليلة يخطر لي أولاً ذلك الاسم المتكرر الذي أريد له ربما، في ذلك الزمن، أن يعني اسماً واحداً لفتاتين اثنتين. وهما، في أي حال، لم تكونا مختلفتين إحداهما عن الأخرى إلا بذلك القدر الذي يميّز «الفاء» في فرحة عن «الميم» في مرحة. كانتا، في ما أتذكر، أو في ما جعلت نفسي أتذكر، توأمتين في هيئة واحدة. وكانتا، إلى ذلك، تجهدان في أن تؤكدا هذه الهيئة الواحدة بالفستانين اللذين، كما يبدوان في الصورة هنا، يمكن القول فيهما إن أحدهما نسخة عن الآخر. وكذلك كانت السكربينتان، لا بد، إذ لم تظهر في الصورة واضحة إلا فردة منهما واحدة. وإلى أشياء أخرى بينها قصة شعرهما (تلك التي حال ظل في الصورة من تبيّن شبههما) كانت تغنيان معاً الأغنية الواحدة بصوتين لا يشذ أحدهما عن الآخر أبداً.

فرحة ومرحة، في تذكري، كانتا تدلان على نفسيهما الساعيتين إلى أن تكونا نفساً واحدة، كما كانتا تدلان، أو يدل اسماهما، على أشياء كثيرة سواهما: علي سعيد ابن عم أبي الذي بقيتُ حتى موته منذ سنتين فقط أتذكر اسم فرحة ومرحة كلما التقيته. كان هو مَنْ اتصل بهما لتغنيا في حفلة العرس تلك، وهو أوحى، في تلك الليلة وفي أيام كثيرة تلتها، أنه يعرفهما أكثر مما قد نظن. ثم إنهما كانتا فنانتين نراهما بشخصهما، وليس على التلفزيون أو في صور المجلات، وليس، إن تعلق الأمر بالصوت وحده، في أغنيات الإذاعة التي كنا نسمعها. كانتا فنانتين نشاهدهما عندنا، على سطح بيتنا حيث أقيم حفل الزفاف. وأنا، في عمر الثانية عشرة آنذاك، رحت أفكر أنهما ليستا حقيقيتين تماماً بل هما تقلدان الفنانات تقليداً. أو أنهما في مرحلة وسطى بين أن تكونا فنانتين

وأن تكونا مثلنا، أو مثل المدعوين إلى العرس، من الناس العاديين. وهذا الظن عندي، أو الشك، لم يأتني من غنائهما، فقد كانتا تغنيان مع الموسيقى كما تغني الفنانات، بل أتاني من الكلام العادي الذي راحتا تتبادلانه مع الناس، وقت وصلتا، وخصوصاً مع علي سعيد الذي كان ينتظرهما عند باب السطح.

الشك في أن تكونا فنانتين حقيقيتين تماماً لم يأتِ من مكر مبكّر فيّ بل من ميل إلى عدم التصديق غذّته تساؤلات من نوع: إن كانتا فنانتين حقيقيتين فلماذا لم نشاهدهما على التلفزيون؟ لماذا لم يسمع أحد باسمهما لا في المدرسة ولا في حيّ المنلا الذي كنا نلعب مع الأولاد فيه. ثم كيف يمكن لعلي سعيد، إن كانتا كذلك، أن يكلمهما كما سمعته يكلمهما؟

ـ أليست عندك صور أخرى عن العرس، سألتُ عمتي.

لم يكن لديها إلا هذه. مع أنني ما زلت أذكر أن المصوّر الذي جيء به لتصوير العرس لم يبخل على أحد أبداً فكان فلاش كاميرته، المبهر الضوء، والذي يحدث صوتاً فوق ذلك، تتنقل التماعاته بين أنحاء السطح كلها. قالت عمتي، مجيبة عن سؤالي، أن لا أحد يعرف كيف تضيع الصور. لكنني، على الرغم من نبرة الأسف التي تبدّت في جملتها تلك، فكّرت أنها ربما كانت هي قد ضيّعت عن قصد صوراً كثيرة، خصوصاً تلك التي تظهر فيها الشقيقتان فرحة ومرحة. أما لماذا احتفظت بهذه الصورة الواحدة، فهذا ما قد يُجاب عنه بالافتراض التالي: كانت قد عثرت على هذه الصورة بعد انقضاء عشر سنوات أو خمس عشرة سنة من تضييعها الصور الأخرى أو تمزيقها. أما لماذا لم تمزق هذه أيضاً حين وجدتها؟ وهنا يمكن أن يُجاب بأن غيرتها من الشقيقتين كانت قد بردت وأن علي سعيد، زوجها، لم يعد مثلما كان في تلك السنة، جهلان راكضاً وراء النسوان.

وقد سألت عمتي إن كان لديها صور أخرى لأنني، على الرغم من وجود فرحة ومرحة في الصورة هذه، لا أرى أن ما أحفظه في رأسي من العرس، أو ما «أتذكره» منه، ينطبق على ما يظهر فيها. الصور التي التقطتها ذاكرتي، وهي صور تستطيع أن تكون، إن جرى تظهيرها على تلك الأوراق السميكة، ثابتة ساكنة مثل هذه. ذاك لأن الذاكرة تعمل على نحو فوتوغرافي، أي أنها لا تصنع شريطاً أو فيلماً مثلما هو الحال في السينما، بل هي تلتقط من المشهد لقطة واحدة. لقطة واحدة أخذتها من وقوف رامز، الذي كان في الخامسة عشرة، حاملاً كأساً فارغة بيده ومتظاهراً بالسكر. ذاك أنه شاهد قناني الويسكي والنبيذ موضوعة في صندوق مغطى في إحدى زوايا السطح لكي يشرب منها، متخفين ممثلين أنهم يشربون شيئاً آخر، مَنْ كانوا يحبون الشرب.

لقطة واحدة، أو صورة واحدة لخال أبي (وإن كان عمره من عمر أبي) يرقص واضعاً إبريقاً مملوءاً بالماء على رأسه. ولقطة واحدة للعتال حامل الصندوق الضخم لكي توزّع المطبقيات التي فيه على المدعوين، كتذكار عن العرس. المطبقيات هذه التي تحتاج، بدورها، إلى لقطة خاصة بها أرى فيها النقوش المرسومة على سطحها البورسلين بالأخضر والزهري الفاتحين. الذاكرة تعمل فوتوغرافياً إذن. تلتقط صوراً ثابتة. أما إن فكّرنا أن ذاكرتنا تأتينا بالأشياء متحرّكة، كأن نتذكّر رامز مثلاً في حركة يده التي ترفع الكأس الفارغة، رفعاً كاملاً، من الأسفل إلى الأعلى، فهذا ليس إلا من قبيل التوهم. إن كانت هناك حركة ما فهي تجري في أقل من لحظة أو أنها حركة لا تلبث أن تبدأ حتى تتوقف. لا أكثر من جزء من اللحظة تخرج فيها حركة من صورة الذاكرة الثابتة. وهذه الحركة نجدها في الصور الحقيقية أيضاً، الصور الفوتوغرافية، وبينها صورة فرحة ومرحة هذه حيث تبدو إحداهما (التي لا نعرف أيهما اسمها من بين الاسمين لكنها، على أي حال، تلك الواقفة إلى جهة الجمهور) كأنها تضيف شيئاً متحرّكاً إلى صورتها الثابتة. أي أن يخطر لنا أن يديها المتحركتين لم توقفهما تماماً لقطة الكاميرا، بل هما استمرتا من بعدها وإن لوقت يصعب قياسه، لصغره.

كنت محتاجاً إلى أن أرى صوراً أخرى لأن هذه، التي أرتني إياها عمتي، شوشت ما كنت أحفظه من ليلة العرس تلك. بعد انقضاء هذه السنوات الأربعين، وربما من قبل ذلك بكثير، لم يبقَ في ذاكرتي من فرحة ومرحة إلا ذلك الاسم المزدوج دالاً على فتاتين خسرتا كل ملامحهما تقريباً. كأنني، في تلك الليلة، لم أشاهدهما، أو كأن ما تعلقت به، طوال هذه السنوات، ظل ينقص ويتلاشى حتى لم يبق منه إلا الاسم المزدوج مشكلاً الفتاتين على هوى حروفه ونغميته. كنت أحتاج إلى صورة أخرى، أو صور أخرى، لأتأكد من أن ما لا أتذكره لا أتذكره حقاً. لقد شوشت عمتي بصورتها هذه ما كنت أتذكره من ليلة العرس تلك. الرجال القاعدون هناك، أو الرجال الواقفون وراءهم، لا أعرفهم. بل لا أعرف أحداً منهم. أقول إنهم ربما كانوا من أقرباء عروس عمي، أو ربما كان قد دعا بعضهم أبي أو زوج عمتي علي سعيد. وهنا أضيف إلى ذلك ما قلته في الجملة الأولى، هناك في الأعلى، من أن هناك خطأ في هذه الصورة. ذاك أن هذه الصورة لو كانت هي العرس، لكان الخطأ ذاك مضحكاً إذ كيف خطر لمن رتّب السهرة أن يجعل الساهرين، أو المتفرجين، يديرون رؤوسهم لكي يشاهدوا فرحة ومرحة تغنيان. كان أحرى بالشقيقتين، وهذا من أبسط الأمور، أن تكونا واقفتين في مواجهة الجمهور وليس على يساره. ثم إن هذا الخطأ في الصورة يصير أفدح إن فكرنا أن صفوف المتفرّجين متتالية، إلى الخلف، وأن الجالسين هناك، في الخلف، أو الواقفين، سيسمعون الأغنية من دون أن يحظوا بمشاهدة مَنْ تغنيانها.

كنت أحتاج إلى صور أخرى تعينني على أن أطابق بين ما أتذكره وما كان حقيقياً في تلك الليلة.

ـ عمّك يجب أن يكون عنده صور، لماذا لا تذهب إليه؟

وأنا لست أكيداً أنه يحتفظ بشيء من صور عرسه. ليس أنه لا يحب الصور فقط، بل إنه لا يحب كل تلك الأشياء التي هي مثل الصور. كان مثلاً يسوق سيارته من بيروت إلى بعلبك من دون أن يدير الراديو ليسمع أغنية على الطريق. ولم يكن يذهب أبداً إلى السينما. كما أنه لم يسبق له أن تلقى رسالة من أحد، أو كتب رسالة لأحد. فرحة ومرحة كانتا «من شغل علي سعيد»، كما كان يتردد بين أقاربنا. وكذلك الفرقة الموسيقية كانت من شغل علي سعيد أيضاً. ثم إن عمي، فوق ذلك كله، لم يشاهَدْ في العرس، عرسه هو، وهذا على الأقل في ما خصني، إذ لا أتذكره هناك أبداً. لا يخفى أن ظني هذا عن عدم وجود عمي في العرس لا يُعتدّ به، أو لا ينبغي أن يُعتدّ به، ما دمت لا أتذكر أن الفرقة الموسيقية كانت هناك أيضاً. لكن، مع ذلك، لا ينبغي أن يثنيني إغفال ما غفلت عنه عن أن أعيد تصميم السهرة، أو الحفلة، بما لا أزال أتذكره منها. هؤلاء الذين نراهم ناظرين إلى فرحة ومرحة ليسوا هم كل العرس. لو كانوا كذلك، أين هو علي سعيد إذن؟ أين هو رامز؟ أين هو أبي، وأين أنا؟ ثم أين هي الفرقة الزجلية التي أجلسوا رجالها الأربعة على طاولة، هناك في وسط السطح، وبدأ أولهم بقول قصيدة عن كرم عائلتنا ظللت حافظاً مطلعها لمدة أقدّرها الآن بسبع سنوات أو ثماني.

هذه الصورة ليست هي كل العرس ما دام أنه لا يعقل أن تقام تلك الحفلة الكبيرة التي جيء لها بالشقيقتين الفنانتين وبالفرقة الموسيقية تعزف لهما، وأيضاً بفرقة الزجل التي «أبدعت»، كما ظل يتردد في بيتنا لسنوات، من أجل هذا الحضور القليل. لا يعقل أن يكون هؤلاء هم الحضور فقط لذلك العرس الذي كلف بحسب ما كان يقول أبي ١٦ ألف ليرة، وهو رقم ضخم في حساب تلك السنوات ولم يكن ليصل إلى ما وصل إليه لولا أن أبي راح يضع فيه كل ما دفعه عمي لزواجه بما في ذلك أثاث غرفة النوم والصالون وأغراض المطبخ وتلك السجادة العجمية الفيروزية اللون التي، لوحدها، كلفت ٣٨٠٠ ليرة.

الميكروفون الذي تقف وراءه الشقيقتان لا أتذكره لكنني أعرف أنه كان موجوداً من مكبرات الصوت الثلاثة التي رفعت على الداخون وكانت ترسل أصوات العرس إلى الأحياء المحيطة ببيتنا. ولم يكن ذلك قد أزعج أحداً حيث، في الصباح، استوقفني النقوزي صاحب المحل على الطريق الذاهبة إلى منطقة عائشة بكار وسألني، مبتسماً: «ماذا كان عندكم البارحة؟» ما يعني أن الناس الذين في البيوت حولنا جميعهم سمعوا

وهم عرفوا أننا نحن مَنْ فعلنا ذلك أيضاً. اللمبات المضاءة في الأعلى لا أتذكرها هي نفسها، لكنني أصدّق أنها كانت موجودة كما هي هكذا موزَّعة على أشرطة كهرباء، وذلك لأنني أتذكر تماماً الشريط الذي مثلها والذي أُنزل بلمباته من الفتحة التي بين الأدراج، من الطابق الخامس إلى الأسفل، حيث مدخل البناية.

ما يظهر في الصورة ليس العرس كله. أعرف أن الرجال الظاهرين هناك في طرف الصورة هم جزء من كثيرين كانوا، على وجه التأكيد، جالسين وواقفين في مواجهة فرحة ومرحة والفرقة الموسيقية التي وراءها. أنا كنت هناك، ربما، في آخر الجالسين والواقفين إذ لم يكن أحد في تلك الأيام يكترث للأولاد. لكنني كنت مسروراً برغم ذلك، متسلياً بحركات رامز ونكاته وأضحك لها أنا والصبيان من أقاربنا الذين لا أذكر الآن من منهم كان حاضراً في تلك الليلة. لكننا كنا نضحك لرامز حين نسأله، فيما هو متظاهر بالسكر: كم كأساً شربت يا رامز؟ فيجيبنا ممثّلاً السكر واللعثمة: شربت ٣ كسوس.

بل إن العرس كان أكبر مما نظن حتى مع إضافة أولئك، الكثيرين لا بد، المواجهين لفرحة ومرحة. العرس أيضاً كان على الدرج الطويل الذي لم يتوقف الصعود والنزول على درجاته المضاءة. كما كان العرس في بيتنا أيضاً، في الطابق الخامس ذاك، غير منفصل عن السطح إلا بالدرجات التي كانت، هي أيضاً، تابعة للعرس. وبيتنا، في الأسفل، كان يجهّز فيه كل شيء قبل أن يحمل في صوانٍ وسدور إلى الأعلى. ليس فقط ترتيب الأشياء وتزيينها، بل طبخها أيضاً حيث، في تلك الأيام لم يكن الناس قد اعتادوا أن يشتروا الضيافات جاهزة. في بيتنا كانت تجري صناعة كل ما يُقدّم للضيوف هناك على السطح، وإلى ذلك كانت تحتشد فيه النساء المدعوات، أولئك اللواتي إن لم نشاهد واحدة منهن في ما يظهر لنا من الجمهور، فذلك يعني أن الجمهور الأكبر هناك، المواجه لفرحة ومرحة، خال منهن هو أيضاً.

الرجال على السطح والنساء في بيتنا. لا أعرف إن كانت فرحة ومرحة قد أُنزلتا، في آخر وصلتهما، لتغنيا شيئاً للنسوان، لكنني أستطيع أن أقول إنهن احتفلن بالعرس على طريقتهن. أي أنهن، وهذا ما أتخيّله تخيّلاً، كن يدخلن السرور بالشغل فكان بينهن مَنْ يرقصن وبينهن مَنْ يساعدن في التضييف وبينهن مَنْ يرضعن أولادهن الصغار كاشفات عن أثدائهن ما دام أن لا رجال معهن.

كانوا رجالاً فقط على السطح إذن. فرحة ومرحة كانتا وحدهما بين الرجال الكثيرين الذين لم يتصرّف أحد منهم بما يجرح شعورهما أو يضايقهما. ليس لأن الرجال موجودون في عرس عمي فقط، بل أيضاً لأن فرحة ومرحة، مهما تغنجتا وهما

تغنيان، إلا أنهما، أمام الرجال، تظلان محميتين بالأخوة التي تجمعهما والتي تجعل الرجال هؤلاء يتذكرون أخواتهن. ثم إن الأختين فرحة ومرحة نزعتا فتيل الاهتياج بمجرد ما قررتا أن ترتديا فستانين لا يختلف أحدهما عن الآخر أبداً. إذ فعلتا ذلك بدتا مثل بنات التوائم الصغار اللواتي يغنين في المدارس، بل وربما جاءت أمهما معهما إلى العرس، بحسب ما قال أحد آنذاك، لكن هذه الأخيرة، إن كانت قد جاءت حقاً، لم تصعد إلى السطح بل جلست تنتظرهما في البيت مع النسوان.

إن كانتا مثل أختين توأمتين تغنيان في حفلة المدرسة فلم تلك الضجة التي افتعلها علي سعيد إذن والتي جعلت أقرباءنا يقولون إنه لم يدعُ من دعاهم إلى العرس إلا من أجل أن يريهم منظراً مما كان يوحي بأنه حياته الثانية. لكنني الآن أستطيع أن أعرف أننا نخطئ إذ نظن أن الناس هم مثلما نراهم أو مثلما يظهرون لنا. والآن أعرف أيضاً أن فرحة ومرحة ربما كانتا تفعلان عكس ما تفعله الفنانات إذ تغنيان وهما تحرصان على أن لا تظهرا عن إغراء لكنهما، حين لا تكونان تغنيان، وحين لا تكونان في حفلة أمام جمهور، تصيران تستفيدان من أنهما فنانتان فتتصرفان على هواهما. علي سعيد، إن كان بينه وبينهما شيء، كان يُجري هذا الشيء في أوقات ما تكونان عائشتين عيشاً عادياً، في بيتهما مثلاً، أو في مكان آخر لم أستطع، في خلال كل تلك السنوات، أن أتخيّله كيف يمكن أن يكون. كما أنني لم أسأل نفسي طوال تلك السنوات لماذا أجمعُ علي سعيد إلى الاثنتين. كان ينبغي عليّ، في وقت ما، أن أفكر أن علي سعيد كان مصاحباً إحداهن، فرحة أو مرحة، وأن الثانية كانت تغض الطرف، بل كانت متواطئة، حين تشاهدهما يتلامسان، أو يتغامزان، هكذا مثلما تفعل صديقة مع صديقتها. لماذا لم يخطر لي ذلك أبداً؟ بل إن عمتي، زوجة علي سعيد، كانت قد قررت، في وقت متأخر من سنة ١٩٦٢ تلك، أن تقول لزوجها أن يسكن لوحده، بسبب فرحة ومرحة، الاثنتين معاً.

في تلك السنة، كما في سنوات أخرى لحقتها، لم تختص مسألة فرحة ومرحة بعمتي وعلي سعيد فقط بل هي أصبحت مسألة من مسائل العائلة كلها. وإذ أعيد التفكر في ذلك الزمن الآن أرى أن فرحة ومرحة كانتا قد تحولتا إلى رمز لخروج كل زوج عن عائلته. إنهما اسم لذلك، أي أن النساء من أقربائنا كن يفكرن أن علي سعيد ربما كان مصاحباً بنات أخريات، في الوقت الذي يقلن فيه، انهما فرحة ومرحة. كانتا، في العائلة وأقارب العائلة، «جواً» ظل اسمهما يذكر به، وذلك بعد وقت طويل من نسيانهما مغنيتين في عرس عمي.

ليس لدى عمتي غير هذه الصورة عن ذلك الوقت. كنت أحب كثيراً أن أحظى بصور أخرى يبدو فيها وجها فرحة ومرحة واضحين على الأقل.

هذه الصورة هي أقل بكثير مما أحفظه عن تلك الليلة وهي، مع ذلك غالطت الكثير من تلك الأشياء التي بقيتُ مسلماً بها طوال أربعين عاماً. زوجتي قالت لي، بعد أن رأت فرحة ومرحة فيها، إنهما ليستا كما أظن نسختين إحداهما طبق الأصل عن الأخرى. وأنا كنت قد اشتبهت بذلك من قبل، حين كانت الصورة تظهر لي فيما أنا أقلب الأوراق التي في الدرج. لكنني كنت أوصد باب الاشتباه ذاك بأن أجري في رأسي عملية سريعة أغلّب فيها ما أتذكره على ما أراه. لم أحب أن يكون ما استعدته متذكراً إياه، بل ملتجئاً إليه كل تلك السنوات، غير صحيح. لم أحب أن يكون العرس شيئاً وما حفظته منه شيئاً آخر. حين قالت لي زوجتي، بعد تحديقها في الصورة، إن قصة شعر إحداهما مختلفة عن قصة شعر الأخرى، أي أن كلاً منهما اختارت التسريحة التي تظن أنها تناسبها، شعرت بشيء يشبه اهتزاز الفاء في فرحة عن الميم في مرحة. ثم اهتزت مرة ثانية حين قالت زوجتي إن هذه، الاقرب إلى جهة المصور، هي أكثر «زنطرة» من أختها بدليل أنها أعلت فستانها إلى ما فوق الركبة بل إنهما غير متشابهتين، أضافت زوجتي دافعة الاسمين إلى تنافر وجاعلة من جمعهما هكذا معاً، بالاسمين، شيئاً هو من قبيل الضحك على الناس. كنت أحب أن أحظى بصور أخرى علّني أطابق ما أراه فيها على الصور الباقية في ذاكرتي. ثم إنني أحتاج إلى هذه الصور الأخرى، تلك التي أضاعتها عمتي ربما، أو مزقتها، من أجل أن أصحح، بناء على ما تمليه علي ذاكرتي، الأخطاء التي حفلت بها هذه الصورة. كنت أحب أن أحظى بصور أخرى، صور أجمعها معاً، واحدة إلى جانب الأخرى، من جهاتهما الأربع وليس من جهة واحدة، وهكذا حتى يجتمع لي السطح كله، من تجميع الصور، كما في لعبة الليغو التي كنا نهديها لأولادنا من أجل أن ينشط ذكاؤهم. وأحبها صوراً كبيرة، في الحجم ذاته الذي أحفظه عن الناس. أن أجمع أجزاء السطح كله بالصور، مخترقة مساحته الواسعة بتلك الغرفة التي يظهر في الصورة هذه، وراء الموسيقيين، حائطها وشباكها ونافذتها.

أحسب أن الشاب الفرنسي، الذي كان مقيماً فيها، لم يكن هناك في تلك الليلة. كان قد أقفل الشباك قبل خروجه، وأقفل الباب أيضاً من بعد أن أطفأ الضوء في الداخل. ذلك الداخل الذي أضيء بلمباتنا نحن، والذي لم يفلح الزجاج المحجر في صدّه.

تلك الغرفة فرقت العرس قطعاً قطعاً، غير أنها، مع ذلك، كانت وحدها باقية على الحال الذي أتذكرها فيه. كنت أحلم وأنا في العمر ذاك أن يستأجرها أبي لأقيم فيها بمفردي. أراجع فيها دروسي، كنت أقول له، «أما الطعام فأظل آكله تحت في البيت». كنت أتخيل نفسي مقيماً على السطح بمفردي، ليس من أجل الدرس تماماً، لكن من أجل أن أكون حراً، مستقلاً بالبيت الصغير أملأ هواءه بالتخيلات والتوهمات، كما بانتظار الوقت القادم الذي تصير هذه التخيلات والتوهمات قابلة للحصول.

كما كان يمكنني أن أشعر بأن أرض السطح الواسعة هي لي وحدي، هكذا من دون أن أكون عارفاً ماذا أفعل بها، عندما غادر الشاب الفرنسي تاركاً الغرفة مقفلة، بل ومفتوحاً بابها لمن يريد الدخول إليها، كنا نحن أيضاً نهم بأن نغادر بيتنا إلى بيوت كانت تتغير كل بضع سنوات. في ذلك الصيف، حين كان يمكنني أن أدخل إلى تلك الغرفة وأخرج منها من دون أن يمنعني أحد، لم يزد بقائي فيها، في كل مرة من مرات دخولي إليها، عن أكثر من دقائق قليلة. كنت أراها فارغة ولا تستحق عناء ملئها بالأثاث من جديد ما دام أن صاحب الملك تركها هكذا مباحة مشرعة الباب. لكنني، في ما يتعلق بتلك الغرفة أيضاً، أجريت على ذاكرتي ذلك الحذف الضروري مبقياً إياها مثلما كانت، بيتاً صغيراً أحلم بأن أسكن فيه بعد أن يغادر ذلك الشاب الفرنسي.

* * *

لا أعرف لماذا، كلما تذكرت ليلة العرس تلك، يخطر لي أنها كانت نهاية حقبة من عمري وبداية حقبة أخرى!

يخطر لي أنها كانت ليلة فاصلة بين زمنين. ربما هذا هو شأن الأيام التي تجري فيها أحداث استثنائية. للسبب ذاته أنهى فيدريكو فيلليني فيلمه «اماركورد» مصوراً فتيان القرية يودعون عمرهم ذاك فيما هم يلوّحون مودعين «امرأة» القرية الراحلة مع عريسها إلى قريته. في ما يتعلق بي، لم يكن شيء كثير ليتغيّر بعد ذلك العرس.

ليس أكثر من أن عمي سينتقل من بيتنا، ذاك الذي لم يكن يأتي إليه إلا لينام فيه على أي حال. أما عن بيتنا فإن أمي وعمتي وقريبات لنا أخريات أسرعن، لا بد، بإرجاع الكراسي والكنبايات إلى الترتيب الذي كانت عليه قبل أن تنشر على أطراف الحيطان لتسع المدعوات. السطح أيضاً سيعود كما كان، مساحة واسعة فارغة تحيط بغرفة الشاب الفرنسي. لم يتغير شيء كثير بعد ليلة العرس تلك، لكنني، رغم ذلك، كنت أودع عمراً لي أو أختمه وأنا واقف هناك، في إحدى صور الذاكرة، الفوتوغرافية الطابع كما أسلفت، مستنداً إلى ذلك الحائط إذ لم يكن من أحد ورائي.

انها ليلة فاصلة بين عمرين، ربما هي كذلك لأنني كلما تذكرت خال أبي، واضعاً إبريق الماء على رأسه وهو يرقص، أقول كيف هو خال أبي الآن، أو أتذكر، كلما شاهدت رامز يتغير من دون كلل، سنة بعد سنة، كيف كان تمثيله السكر هناك على السطح. علي سعيد أيضاً ظللت أراه، حتى موته، بادئاً من هناك، من تلك الليلة، ومتقدماً منها إلى ذلك الإمام الذي لم يكتفِ بأن حوله إلى رجل لا يحب إلا شغله وأولاده، بل إنه راح يظهره مهملاً ثيابه وهيئته ولا يلتفت إلى النساء العابرات أمام محله. كانت تلك

نزوة عابرة، كما صارت تقول النساء قريباتنا إذ يرينه داخلاً إلى البيت طويل الشعر واللحية ولا يجلس معهن ليمازحهن.

علي سعيد أتخيله بادئاً من هناك، من تلك الهيئة التي لم يعد إليها. أما فرحة ومرحة فلم أسمع باسمهما إلا حينما يذكره من كانوا ساهرين في تلك الليلة، كأنهما، هما الفنانتان، لم تغنيا إلا في ذلك العرس. وقد بقيت لسنوات طويلة أسأل رفاقي في المدرسة إن كانوا يعرفون فنانتين شقيقتين اسمهما فرحة ومرحة. لم يكن يعرفهما أحد. كانتا في حضورهما الذي لم يُنس بيننا، حتى بعد انقضاء سنوات كثيرة على ذلك العرس، كأنهما فنانتين مشهورتين لكن عند عائلتنا وحدها.

لقد بقيتا هناك، في تلك الليلة من سنة ١٩٦٢ ولم تشاهدا في يوم واحد من أيام السنوات التي أعقبتها. حتى الناس العاديين، الذين ليسوا فنانين مثلهما. كان ظهورهم، أو ذكرهم، محتملاً، بل ومؤكداً ربما، في يوم من الأيام، هما اختفتا، أو ربما، وهذا ما ينبغي أن يكون قد حصل، خلعتا اسميهما، المستعارين لا بد، وعادتا إلى اسميهما الأصليين، الاسمين اللذين لا يختلفان عن تلك التي تتسمى بها بنات البيوت التي نعرفها.

هذه الصورة سترجعها لي، قالت لي عمتي..

فيما أنا أضع الصورة داخل كتاب كنت أحمله وأتهيأ لأقول لها أن تظل قاعدة ولا تقوم لتوديعي، سألتها إن كانت تعرف شيئاً عن فرحة ومرحة.

فكرت أنني غلطت بسؤالها عنهما، ذاك أنها، كأنما بوغتت، رفعت عينيها ونظرت إليّ تلك النظرة التي جعلتني أظن للحظة أن الحرج القديم ما زال على حاله وأنه لا يحسن بي أن أسألها، أنا ابن أخيها، عن نساء كان يعرفهن زوجها.

ـ لا أعرف شيئاً... ربما علي سعيد كان يعرف.